أبحاث

موقف الإسلام من غرائز الإنسان وفطرته
" التدين أنموذجاً "

د. عبدالرحمن بن هادي آل سريِّع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، القائل: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الروم: ٣٠).

والصلاة والسلام على نبي الرحمة ﷺ، البشير النذير والسراج المنير محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وبعد :

فلما كانت الغاية من خلق الإنسان في هذه الحياة قد حددت في قوله – تعالى –: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الطور: ٥٦). فإن الله – تعالى – قد أودع في هذا الإنسان من وسائل الإدراك ما يعرفه على تلك الغاية ويدله عليها، وجعل إدراك تلك الغاية كامنة في تكوينه ووجدانه ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الروم: ٣٠).

ولقد خُلق الإنسان مكرماً ومعتنى به، فخلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان سيد المخلوقات، قال – تعالى –: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (ص: ٧١، ٧٢).

وانطلاقاً من هذه المكانة والغاية جاء التعامل مع غرائز الإنسان وفطرته في شريعة الإسلام، متسقاً مع الفطرة ومتناسقاً مع ضروراتها وحاجاتها ومتطلباتها؛ فالعناية بالإنسان روحاً وعقلاً وجسداً محور التشريع الإسلامي، ليتمكن من أداء التكليف الأزلي له في هذه الحياة بحرية وإرادة تامة.

ولأجل هذا التكليف سخّر الله له ما في السماوات وما في الأرض، وأحاط كيانه وكرامته، بجملة من القوانين والتشريعات التي رعته في كل مراحله وظروفه. قال الله – تعالى –: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ (لقمان: ٢٠). وقال– سبحانه–: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾ (الروم: ٥٤).

واليوم في ظل فضاء مفتوح وعالم يعج بالأفكار وأنواع المفاتن والمغريات، عالم بات يجمع بين تعقيد الشبهة وتبسيط الشهوة، حتى غدا بيان الأولى ومحاولة تفكيكها مهمة شاقة، وصار التحذير من الثانية محل ريب وتخلف حضاري مزعوم، ممن لم يفهم كُنْه الحضارة . عالم تغذى فيها شبهات الإلحاد ونظريات اللادين في تصادم صارخ مع فطرة الإنسان المبنية على معرفة الله والإيمان به.

إن حرية التدين لا تعني الإلحاد بالله – تعالى – بقدر ما تعني حرية الوصول إلى الله، والإنسان بما أودع فيه من القدرات والغرائز هو على إحدى الحالتين إما شاكراً فيسلك طريق الإيمان والتوحيد لله – تعالى –، وإما كفوراً بمنادي الفطرة وصوت العقل فيجحد بما استيقنت به نفسه ظلماً وعلواً.

ولكثرة الشبهات التي تثار اليوم حول مسألة التدين وأحكام الشريعة حولها، وأن حرية الفرد تتيح له حق الإلحاد فإن هناك ما يقتضي مزيد بيان وعناية توضيح حول محورية التدين في فطرة الإنسان وغرائزه؛ وهو الهدف من بحثنا هذا بعون الله- تعالى-.

محاور الدراسة :

تتكون الدراسة من مبحثين:

المبحث الأول: مفاهيم وتعريفات "الغرائز- الفطرة- التدين"، ويشمل:

- تعريف الغرائز
- مفهوم الفطرة
- العلاقة بين الغرائز والفطرة
- مفهوم التدين

المبحث الثاني: غريزة التدين وكيف تعامل الإسلام معها ويشمل:

- الإنسان والدين في نظر الشريعة.
- غرائزية الجسد وسمو الروح في الإسلام.
- غريزة التدين وكيف تعامل معها الإسلام .
- تنمية الدين في النفوس.

ثم الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات

فهرس المصادر والمراجع

المبحث الأول
مفاهيم وتعريفات "الغرائز ـ الفطرة ـ التدين"

ويشمل الآتي:

أولاً: تعريف الغريزة :

الغريزة: بفتح الغين والزاي، جمعها غرائز، وهي الدافع للإنسان إلى عمل من غير فكر(١).

جاء في المعجم الوسيط: الغريزة: الطبيعة والقريحة والسجية. وفي الفلسفة: صورة من صور النشاط النفسي، وطراز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية(٢).

وتطلق الغريزة على الاندفاع التلقائي الخالي من الوعي، أو على الاندفاع الإرادي المصحوب بالاحتياج، كدافع حيوي موجه لنشاط الفرد(٣).

والغريزة عند بعض الفلاسفة هي الطبيعة المقابلة للعقل. حتى قال (بركسون): (إن الغريزة والعقل نمطان متوازيان من أنماط الفعل والمعرفة)(٤) ، وهي بذلك أمور جبلية مرغوبة لدى الإنسان تنازعه وتغالبه بغية إشباعها.

وقد ركب الله في الإنسان جملة من الغرائز والرغبات (منها ما هو فردي ومنها ما هو جماعي وأهمها: غريزة البحث عن الطعام والشراب وغريزة التملك وغريزة حب البقاء وغريزة الجنس وحب التدين والاجتماع والسيطرة والأبوة وغيرها)(٥).

ثانياً: مفهوم الفطرة :

الفطرة: الابتداء والاختراع. وفطر الله الخلق: هو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال، وفطر الله الخلق يفطرهم خلقهم وبدأهم، وفي التنزيل العزيز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ١).

قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. أي: أنا ابتدأت حفرها(٦).

وتعددت التوجهات في مفهوم الفطرة: فرأي: يعتبرها الجبلة المقتضية لقبول الدين.

وآخر: جعلها ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به[٧].

وهذه الآراء لا تخرج عن اعتبارها ما يولد مع الإنسان من الاستعدادات والميول والغرائز الكامنة في تركيب الإنسان دون أن يكون لأحد دخل في إيجادها.

ثالثاً: علاقة الغرائز بالفطرة :

يقال إن الغريزة هي الإجراء الذي يحدث على الفور بشكل تلقائي؛ بينما الفطرة هي العمل الذي يقوم به الشخص نتيجة للتعلم من خلال الملاحظة أو التعليم أو الخبرة[٨]، ويرى أن الغريزة الدافع للإنسان إلى عمل من غير فكر.

ومن خلال التعريفات السابقة يظهر أن الفطرة عامة تشمل الغرائز وتشمل طبيعة التكوين البشري، فتكون الفطرة عامة والغرائز جزء منها وفي إطارها.

رابعاً : تعريف التدين :

الدين: لغة: من الدنو. أي: الخضوع والذل.

واصطلاحاً: هو مجموعة من المعتقدات والأفكار لدى الشخص.

والدين: هو الطريقة المخصوصة الثابتة من النبي ﷺ، يسمى من حيث الانقياد له ديناً، ومن حيث إنه يملي ويبين الناس ملة[٩].

والتدين هو تمسك الفرد بمعتقداته وبناء حياته وفق أحكامها. واتباع دين معين والإخلاص له يعتبر تديُّناً.

المبحث الثاني
غريزة التدين وكيف تعامل الإسلام معها

الإنسان مجبول على النزعة إلى التدين، ويجد نفسه تنزع إلى التعبد لشيء يعظمه بحق أو باطل؛ لذا نجد أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش مطمئناً إلا بالتعبد لمألوه ما؛ لذلك حتى الفلاسفة الذين دعوا الناس للإلحاد والتمرد على دياناتهم قد وجدوا أنفسهم مضطرين لتعليقهم بمذاهب فلسفية جديدة لعلها تشبع عطشهم الروحي للتعبد، وذلك كما فعل "أوجست كونت" بابتداعه مذهب الإنسانية بدلاً من ديانات اتباعه القديمة.

وهنا نحاول إيضاح منهج الإسلام في التعامل مع هذه الغريزة وكيف أشبعها بالحق الذي يناسب طبيعة الإنسان وتكوينه .

أولاً: الإنسان في نظر الشريعة مكانة وتكويناً:

لم يحظ الإنسان بمكانة عظيمة كما هي مكانته في شريعة الإسلام، فمعاني التكريم، والإنعام، والتكليف التي حظي بها جلية بيّنة، قال – تعالى –: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ (الإسراء:٧٠).

وعن التكليف وحمل الأمانة قال الله– عز وجل–: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ (سورة الأحزاب:٧٢).

وجاءت أحكام الشريعة مراعية لمكونات الإنسان الثلاثة: الجسد والروح والعقل، قال – تعالى –: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (سورة ص: ٧١،٧٢).

فالجسد قبضة طينية تمثل الجانب المادي منه، والروح نفحة علوية ربانية هي موطن التكريم، والعقل أداة التمييز والتفكر، والقرآن الكريم يوازن في خطابه بين ثلاثة المكونات هذه ، وقد تنزلت أحكام الشريعة مراعية لذلك، فكل عنصر روعيت متطلباته واحتياجاته بلا إفراط أو تفريط.

ثانياً: الإنسان والغرائز :

مما لا شك فيه أن الله الخالق- جلّ في علاه- عليم بما يصلح عباده، وبما يوافق ما فطرهم عليه، كما يعلم أضرار عدم إشباع تلك الغرائز أو المبالغة في إشباعها.

والغرائز المكتشفة في القرن العشرين ذكرها القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي، وتعامل معها بوسطية واتزان، فالغرائز جزء منها شهوات حببت إلى النفس البشرية، يقول الله – تعالى -: **﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾** (آل عمران: ١٤).

وقال: **﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** (الكهف:٤٦).

وقال أيضا: **﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾** (الفجر: ١٩،٢٠).

وقال- سبحانه-: **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾** (العلق: ٦،٧).

وهذه الغرائز إن لم توجه التوجيه الراشد الصحيح انحرفت ودمرت؛ فالغريزة المنفلتة صورة من صور الحيوانية المتوحشة، لا تختلف عنها عند الحيوان، في أنها حاجة بيولوجية. وربما تفوق الإنسان كثيراً على الحيوانات في كمية وطرق إشباعها، فبينما تقتصر الحيوانات على ما يشبع تلك الغرائز، يتكثر الإنسان منها حد الإفراط، بل ويتفنن في طرق وأساليب إشباعها.

فانحراف الغرائز ينتج انحرافات فكرية وسلوكية، وأمراض اجتماعية، تتوزع بين الشركيات والبدع، وبين الفساد والظلم الاجتماعي، والانحلال الأخلاقي، كما تنتج أمراض الاستبداد والطغيان، وتنتشر الأحقاد والضغائن وأمراض الشح والحسد.

وشريعة الإسلام تعطي لكل مكون في الإنسان حقه ومستحقه بعدل واتزان؛ فمنحت قبضة الطين وما تحمله من غرائز وشهوات حقها، كما أعطت لنفخة الروح وما يتعلق بها حقها أيضاً.

والشريعة في تعاملها مع الغريزة تربط متطلبات الجسد بغايته، فتسمو بها إلى مصاف العنصر الإلهي (الروح)، فالغرائز حين توظف التوظيف الأمثل وتوجه التوجيه السليم تكون طاقة حافزة للعمل، ووسيلة لبلوغ مرضاة الله، إن استخدمها المسلم فهو يستخدمها كطاعة، وإن أحجم عن تلبية رغباتها فامتثال لأمر الشرع وهديه.

فهي إن أشبعت خارج أحكام الشريعة كانت مجرد شهوة، يزداد سعارها وتتأجج نارها وتهوي بصاحبها في مهاوي الردى، وتلبسه لباس الدواب التي تحركها غرائزها وتدفعها شهواتها.

عن أنس بن مالك ﷺ، يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: " **أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**"(١٠).

ولنضرب مثالين لكيفية تعامل الإسلام مع الغرائز:

الأول: غريزة البحث عن الطعام والشراب قضية "المعدة" لم يهملها الإسلام بل وجهها فقال: ﴿**وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ**﴾ (الأعراف:٣١) لكنه أتبعها بقوله: ﴿ **وَلاَ تُسْرِفُواْ** ﴾.

كما حذر من أن يجعل البعض غايته في الحياة ما يدخل معدته، فينزلق إلى مراتب غير إنسانية إذ وصفهم القرآن بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ (محمد:١٢)، وقال في طيبة ملذات الدنيا لعباده الصالحين: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف: ٣٢).

الثاني: غريزة الجنس :

لقد خرج الإسلام بها من الأفق الضيق، بجعلها عملية مادية بحتة لا يتحدث فيها الطرفان إلا بلغة الطين "مادة الجسم"، إلى لغة النفخة الإلهية، وإلى آفاق مشعة بالطاعة والروحانية، فلقاء الرجل بزوجته يبدأ باسم الله، ثم الدعاء بأن يجنبهما الله وذريتهما من الشيطان وعمله، ثم يقرر الرسول ﷺ أن الطريق النظيف لتفريغ هذه الشهوة إنما هو صدقة !! وما أعجب ذلك حين يقول الرسولﷺ : " **وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: "**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**"(١١)، ونفس العجب هو ما استولى على الصحابة ﷺ: " أيقضي أحدنا شهوته ويتحصل الأجر". فأطلعهم الرسول على السر: "**أرأيتم لو وضعها في حرام...**". أي: أن ذلك تحفيز له على لزوم الحلال والقناعة به(١٢).

ولقد تعاملت الشريعة مع الإنسان في هذا الجانب بناء على المحددات الآتية:

١- **الإنسان خلقٌ لا يتمالك :**

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " **لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ** "(١٣).

قال النووي: معنى لا يتمالك: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات. وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه. وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب. والمراد جنس بني آدم(١٤).

٢- **طبيعة الإنسان الضعف :**

قال الله – تعالى –: ﴿**يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ (النساء: ٢٨).

قال الشوكاني: {يريد الله أن يخفف عنكم} بما مر من الترخيص لكم أو بكل ما فيه تخفيف عليكم، {وخلق الإنسان ضعيفاً} عاجزاً غير قادر على ملك نفسه ودفعها عن شهواتها وفاء بحق التكليف فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف فلهذا أراد الله- سبحانه- التخفيف عنه(١٥).

قال القرطبي- رحمه الله-: المعنى أن هواه يستميله، وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف، فاحتاج إلى التخفيف(١٦).

وقال ابن عاشور- رحمه الله-: (وقوله {وخلق الإنسان ضعيفاً} تذييل وتوجيه للتخفيف وإظهار لمزية هذا الدين وأنه أليق الأديان بالناس في كل زمان ومكان؛ ولذلك فما مضى من الأديان كان مراعى فيه حال دون حال ومن هذا المعنى قوله الله – تعالى -: {**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا**})(١٧).

٣- **أنه ظلوم جهول :**

قال الله – تعالى -: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ (سورة الأحزاب: ٧٢).

معنى كان ظلوماً جهولاً: أنه قصر في الوفاء بحق ما تحمله تقصيرا، بعضه عن عمد وهو المعبر عنه بوصف ظلوم، وبعضه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء وهو المعبر عنه بكونه جهولاً، فظلوم مبالغة في الظلم وكذلك جهول مبالغة في الجهل.

ويجوز أن يراد ظلوماً جهولاً في فطرته، أي: في طبع الظلم، والجهل فهو معرض لهما ما لم يعصمه وازع الدين، فكان من ظلمه وجهله أن أضاع كثير من الناس الأمانة التي حملها(١٨).

قال البيضاوي: وكونه ظلوماً جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمناً على

القوتين حافظاً لهما عن التعدي ومجاوزة الحد ومعظم مقصود التكليف تعديلهما وكسر سورتهما[١٩].

ثالثاً: غريزة التدين وكيف تعامل معها الإسلام :

منطق المادية البحتة لا يستقيم مع التكوين الفطري للإنسان وإن ادعى البعض عكس ذلك، فليست الغرائز متوجه نحو الملذات وحسب، بل إن غريزة التدين غريزة أصيلة في البشر، بدليل تاريخ التدين في حياة البشرية.

والدِّين أحد أهم مكونات شخصية الإنسان وتفكيره وسلوكه وتعامله مع نفسه ومع من حوله، وقد شاع بين الحكماء أن في الإنسان فجوة لا يملأها إلا الإيمان بالله – تعالى –[٢٠].

فالشعور بالحاجة إلى إله خالق مدبر، صفة تلازم البشر عبر العصور بغض النظر عن تفسير هذا الخالق المدبر، وهو شعور فطري يكون في الإنسان من حيث هو إنسان، سواء أكان مؤمنًا بوجود الخالق الحق، أو كافرًا به، مؤمنا بالمادة أو الطبيعة.

ووجود هذا الشعور في الإنسان حتمي؛ لأنه يخلق معه، ويكون جزءًا من تكوينه، ولا يمكن أن يخلو منه أو ينفصل عنه.

ويتجلى هذا التدين بالتقديس لما يعتقد أنه هو الخالق المدبر، أو الذي يتصور أنه هو الخالق المدبر.

وقد يظهر التقديس بمظهره الحقيقي فيكون عبادة، وقد يظهر بأقل صوره فيكون التعظيم والتبجيل.

وحاجة الإنسان إلى التدين أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب، فهو يكتسب أهميته بالنظر إلى آثاره الإيجابية، على الفرد والجماعة على حد سواء.

وقد تعامل الإسلام مع غريزة التدين من خلال الآتي:

١- **الاعتراف بحق التدين وأن الدين ملازم للفطرة**، وبيانه فيما يلي:

أولاً: إقرار الشريعة لفطرة التدين :

فقد تضافرت الدلائل الشرعية على اعتبار الإسلام التدين فطرة، فطر الله الناس عليها، فمن ذلك قول الحق- سبحانه-: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ، وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (الأعراف:١٧٢- ١٧٤).

قال جمع من المفسرين في معنى الآية : إن الله أخرج ذرية آدم من صلبه، وقررهم بربوبيته وأمرهم بعبادته وأخذ عليهم الميثاق بذلك[٢١].

ومن الأدلة أيضا قوله- سبحانه وتعالى -: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ**﴾ (الزخرف: ٩).

والآية الكريمة تصور حال الفرد الذي قاده هواه وأغواه شيطانه ليجحد رب السموات والأرض؛ لكنه حين يحيط به الكرب وتعجزه الحيل :

- يترك كل مزاعم التعلق بغير الله .
- يتوجه بالدعاء مخلصا للخالق وحده.

قال - تعالى - : ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ (لقمان: ٣٢).

وقال- سبحانه وتعالى -: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ (التوبة:٢١).

وقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٥-٦٦).

وقال- سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٦٧).

يقول الشنقيطي- رحمه الله- : (أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر؛ أي: اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك - ضل عنهم ؛ أي: غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله- جل وعلا-، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله وحده؛ لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده- جل وعلا-) [٢٢].

حتى المتأله المتكبر حين يرى الهلاك يهتف من أعماق قلبه: ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس:٩٠).

وفي الصحيح: " **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**"[٢٣].

فالفطرة جبلة بشرية خلق الله الإنسان عليها تتوافق مع مراده - تعالى - في الخلق والحياة، ما لم يرد عليها طارئ ينقله إلى غيرها "فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجّسانه". ومعناه فطرة الدين الحق، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه؛ أي: ينقلانه إلى دينهما.

والحديث بيان "أن الفطرة هي الإيمان العام، وإنما فيه أنه يولد على تلك الخلقة التي لم يظهر منها إيمان ولا كفر، لكن لما حملهم آباؤهم على دينهم ظهر منهم ما حملوهم عليه من يهودية أو نصرانية"[٢٤].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله ﷺ، قال ذات يوم في خطبته: " **أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا..**"[٢٥].

قال النووي في معني (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم). أي: مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية[٢٦].

يقول عمر بن عبد العزيز: عليك بدين الأعراب، والصبيان في الكتاب، وعليك بما فطرهم الله عليه. فإن الله فطر عباده على الحق، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها[٢٧].

قال ابن تيمية : "القول كلما كان أفسد في الشرع كان أفسد في العقل؛ فإن الحق لا يتناقض، والرسل إنما أخبرت بالحق، والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة. قال – تعالى –:**﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾** (فصلت: ٥٣). فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة؛ لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول[٢٨].

ثانيا: التدين نزعة لدى مختلف الأمم السابقة :

الشرك عارض على فطرة الإنسان كما بينته الآيات والأحاديث السالفة، قال الله: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾** (البقرة :٢١٣).

والشرك خطيئة وخطأ، فهو خطيئة لمن يحرف مسار فطرته عمداً، وخطأ للجهلة الذين ألغوا ملكة العقل والتدبر، وأسلموا أمرهم لشياطين الإنس والجن الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فهم يقرون بالله – تعالى – لكنهم يجعلون له واسطة وسببا — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً– قال– جل وعلا–: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ (الزمر: ٣).

بل إننا حين نحلل منطق ومنهجية الملحد نجده لا يتجاوز الفطرة في شأن الدين، فهو يبحث في إلحاده عن صورة تشبع غريزة التدين لديه!

صورة قد يكون هدفها جعل الناس عبيداً له من دون الله – تعالى –، وإن لم يصرح بها ملاحدة العصر كماركس ولينين ومن على شاكلتهم؛ فقد صرح بها من قبل أستاذهم الأكبر وقدوتهم الأول حين صاح في قومه: ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ (الأعلى: ٢٤)، بل تعدى ذلك ليقول: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ (القصص: ٣٨).

وحين نتأمل كتاب الله – تعالى – ونستقرئ سير الأمم مع أنبيائهم نجد القرآن الكريم يحكي لنا أحوال تلك الأمم مع أنبيائهم وكيف يظهر ارتباطهم بدينهم:

ففي قصة نوح– عليه السلام–، قال الله– عز وجل–: ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ (نوح:٢٣).

وفي قصة إبراهيم– عليه السلام–، قال الله– عز وجل–: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ (الأنبياء:٦٨).

وفي قصة موسى– عليه السلام– نجد عدو الله فرعون يظهر نفسه حامياً لدين قومه، قال الله – تعالى –: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**﴾ (غافر:٢٦).

وعن خاتم النبيين سيدنا محمد رسول الله ﷺ، يقول الله – تعالى –: ﴿**وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ**﴾ (ص:٦).

إن انحراف الغريزة الدينية يمثل انحرافاً وتطرفاً عن منهج الله – تعالى – شأنه شأن بقية الغرائز، وما الإلحاد والتألة والشرك إلا صور للانحراف عن فطرة الله – تعالى –.

٢– ترك حرية التدين للناس :

التدين غريزة وحاجة بشرية؛ "فالناس إما أن يعيشوا من غير دين ينظم حياتهم، ويضبط سلوكهم، وإما أن يتخذوا لهم من يشرّع لهم ديناً، وإما أن يكونوا على الدين الحق الذي جاءهم بالبينات والهدى، فيكونوا بذلك على وفاق مع فطرتهم التي فطروا عليها، فتنتظم أمور حياتهم خير انتظام، فإن اختاروا الأول عاشوا في بهيمية نكراء يأكل الضعيف منهم القوي، وكان اختلافهم عن سائر الحيوان بالشكل والصورة فحسب، وإن اختاروا الثاني فقد اختاروا العبودية لطائفة من البشر، تتسلط عليهم، وتذيقهم من ظلمها سوء العذاب"(٢٩).

ومما لا ريب فيه أن الفطرة تقود إلى الدين، ودين الفطرة التي فطر الناس عليها هي توحيد الله – تعالى – والإيمان به؛ إلا أن منهج الله – تعالى – لا يجبر الناس على الإسلام وإن كان هو الدين الحق الذي ارتضاه للناس ولا يقبل من البشر سواه قال – تعالى –: ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام**﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال الله– تبارك وتعالى –: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (آل عمران:٨٥).

ويقول النبي ﷺ : " **أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**"(٣٠).

لكن في المنظور الابتلائي والسياق الامتحاني في هذه الدنيا الفانية ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ (الملك: ٢)، ﴿**إما شاكرا وإما كفورا**﴾ فترك– سبحانه وتعالى – للبشر حق اختيار الدين وحرية التدين، قال– سبحانه وتعالى –: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف: ٢٩).

ومن صور إشباع غريزة التدين في الإسلام إطلاق الحرية التامة للفرد في اختيار طبيعة المنهج الذي ينتهجه والملة التي يؤمن بها، قال – تعالى –: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ (البقرة:٢٥٦).

وعندما يرد التساؤل عن سر مشروعية قتال الكفرة حتى يكون الدين لله كما في قوله – تعالى –: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ١٩٣).

وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (الأنفال:٣٩).

وإن من مصالح الإسلام في القتال تـ (أمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه)[٣١]، والتي لوازمها أن الشارع لم يجبر الناس على دخول الدين؛ إذ جبرية التدين لا تعني سوى إخراج مجموعة من المنافقين والزنادقة يتلفعون بثيابه وهم معاول هدم وأدوات تخريب، بل إن منهج الجبرية تصادم بين وتعارض جلي مع مقصد الشارع من الخلق بالابتلاء والعبادة لله – تعالى – عن قناعة وامتثال، الابتلاء إما شاكراً وإما كفوراً.

وإن الغابة من القتال إنما هي لمنع استبداد وطاغوتية البشر وتألههم على من سواهم؛ وأن تبقى حرية التدين مشرعة على مصراعيها ﴿ **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ (الكهف: ٢٩). فغاية الوجود الإنساني العبادة، والعبادة اختيارية، والعبودية قهرية.

٣– الإرشاد إلى الدين الحق المبني على الاقتناع واليقين :

تميز الإنسان بميزتين مهمتين، هما القدر على التمييز، واستطاعته على الاختيار، قال الله –تعالى –: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (الأنسان:٧–١٠). وقال – تعالى –: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ (البلد: ١٠). وقال – تعالى –: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ (الإنسان: ٢).

وبتأمل هذه الآيات الكريمات وأمثالها في كتاب الله العزيز تتجلى لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بوضوح تمام . وأنه كائن مزدوج التركيب، معقد الطبيعة، خلق من عنصرين أحدهما من السماء والآخر من الأرض، (الطين والروح) ثم تكاثر نسله من (نطفة أمشاج) يجتمع فيه الخير والشر، والهدى والضلال، والحب والبغض، والشدة والقسوة، والزهد والطمع، والأنانية والإيثار ...إلخ.

فكل هذه الأمور كامنة في طبيعته متحفزة للخروج، وتبقى العوامل الخارجية هي التي تؤثر في نوع ما يخرج من هذه الكامنات وطريقة توجيهه، وما الذي تحجبه وتحول دون خروجه.

وقد منح الإنسان حاسة السمع والبصر المكونة لقوة الإدراك، الذي يتحمل بدوره مسؤولية التبعات(٣٢).

ولقد ذم القرآن الكريم من يبنون تدينهم على التقليد، ومن المجمع عليه بين العلماء تحريم التقليد في العقيدة، قال – تعالى –: ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** ﴾ (الزخرف: ٢٣).

والإيمان لا يصح إلا ما كان منه عن قناعة ويقين، ومنهج الإسلام في الدعوة إلى الإيمان أن الدعوة القائمة على الرغبة والإقناع، من خلال التأمل في الكتابين المسطور " القرآن الكريم" والمنظور" ملكوت الله – تعالى –، وطرق ذلك هو العلم، قال– سبحانه وتعالى –: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ (محمد: ١٩).

(وأفضل الطرق وأمثلها طريق القرآن الحكيم في عرض الكائنات على الأنظار وإرشادها إلى وجه الدلالة فيها على وحدانية مبدعها وقدرته وحكمته. هذا هو حكم الله الصريح في المسألة فإنه أمر بالعلم بالتوحيد)(٣٣).

ولقد عبدت الأمم مخلوقات معينة إشباعاً لغريزتهم الدينية، فاختاروا ما يرمز إلى القوة والعظمة، فعبد قوم الشمس ظناً منهم أنها الأقوى، وعبد آخرون القمر، قال –

تعالى -: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة: ٧٦).

وكان جواب الحق- سبحانه-: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت: ٣٧-٣٨).

إنها الآية التي ورد فيها النهي عن السجود في القرآن الكريم وقد جاء في سياق الحجاج العقلي الهادي إلى دين الله الحق .

وفي قصة نبي الله إبراهيم- عليه السلام- ما يدل على الطريق الصحيح للوصول إلى الإيمان الحق بالله - تبارك وتعالى -، وفيه بيان المنهجية القرآنية في حث العقل على التأمل والتفكر حتى يكون الإيمان نابعا من قناعة ويقين، قال- جل من قائل-: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:٧٥-٧٩).

ومنهج القرآن يدعو ولا يلزم، ومن آياته، قل انظروا، أولم يسيروا، أولم يتفكروا، أفلا ينظرون،... إلخ .

وإن من معالم الدين الحق أنه دين يشبع غريزة الإنسان ويسد فجوته، ولا دين يفعل ذلك إلا دين الإسلام؛ لأنه الموافق للفطرة، وهو دين جميع الأنبياء، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ١٩ ، ٢٠).

وإن من ملامح الدين قدرته على التعامل مع فطرة الإنسان بلا كبت أو تفريط، فالدين ما وضع إلا لينظم حياة الإنسان بغية الوصول إلى الحياة الطيبة، قال الله – تعالى –: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** (النحل: ٩٧).

ومن تنظيم حياة الإنسان حرص الإسلام على توجيه الغرائز إلى ما فيه صلاحه في دنياه وآخرته، مع ضمان الاستفادة من هذه الغرائز في جلب المصالح ودفع المضار، قال ابن تيمية– رحمه الله–: (إن كل ما خلقه الله في الحي من قوى الإدراك والحركة فإنما خلقه لحكمة، وفي ذلك من جلب المنفعة للحي ودفع المضرة عنه ما هو من عظيم نعم الله عليه)[٣٤].

وقد اتسمت توجهات الإسلام لهذه الغرائز بالسمات الدالة على صلاحيته وكماله، ومن هذه السمات :

أ– التوازن الدقيق :

التوازن الذي يعطي كل ذي حق حقه ومستحقه، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص– رضي الله عنهما–، قال قال لي رسول الله ﷺ: **يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟** فقلت: بلى يا رسول الله قال: "**فَلاَ تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**"[٣٥]، فجعلها حقوقاً مرعية، يقوم بها الإنسان تجاه نفسه وتجاه غيره.

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: "إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**"(٣٦).

ب- العدل الكامل:

وهذا العدل يراعي الجسد كما يراعي الروح، عن أنس- رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه - يعتمد عليهما في المشي- فقال: " **مَا بَالُ هَذَا؟**»، قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ**»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ"(٣٧).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما-: بينا النبي ﷺ يخطب؛ إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: "**مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه**"(٣٨).

ت- الرحمة التامة :

وهذه الرحمة تكف الغرائز عن المحرمات، ولكنها تفسح لها المجال في المباحات، وتلبي طموحات التدين، ولا تغفل احتياجات الغريزة، قال الله- عز وجل- في وصف المؤمنين: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾ (المؤمنون: ٥-٧)، بل إن الشريعة تؤكد الأجر من الله - تعالى - لمن ينفس عن غريزته في الحلال، كما في الحديث الصحيح الذي تقدم: "وفي بضع أحدكم صدقة" .

وعند رؤية أوضاع من لا دين ما يرى واقعا من الحياة النفسية التعيسة التي يحياها من لا يؤمنون بدين الله الحق، رغم ما توفر لهم من متع الدنيا وملذاتها، نجد أنهم قد فقدوا أغلى ما فيها وهو الإيمان بالله- عز وجل-، وتصادمت كثير من شؤونهم مع

الفطرة السليمة، فهم يتقلبون في ظلمات الشك وبحار التيه النفسي، مما يدفع بالكثيرين منهم إلى التخلص من حياتهم بسبب الخواء الروحي والضيق النفسي الذي يعانونه، وصدق الله القائل: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى** ﴾ (طه : ١٢٤- ١٢٧).

فالحمد لله الذي فطرنا على نعمة الإسلام، ووجدنا عليها آبائنا قائمين غير ضالين ولا مضلين.

والفضل لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطلاً، ونسأله الثبات على الحق حتى الممات، وأن يلهمنا الصواب يوم العرصات .

۞ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ۞

هوامش البحث

١ – معجم لغة الفقهاء، المؤلف: محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ، ص٣٣٠.

٢ – المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة ، (ب.ط)، (ب.ت)، (مادة: غرز)، ص٦٤٩.

٣ – المعجم الشامل للمصطلحات العلمية والدينية، إبراهيم حسن سرور، دار الهادي، ٢٠٠٨م، (٦٢١/٢).

٤ – المعجم الفلسفي، جمال صليبا، الناشر: الشركة العالمية للكتاب، بيروت، تاريخ الطبع: ١٤١٤ هـ .

٥ – ينظر: مقدمة في علم النفس، نبيهة صالح السامرائي، المؤلف: نبيه صالح السامرائي، مقدمة في علم النفس، النشر: دار زهران، عمان، الأردن : للنشر والتوزيع، (ب.ط)، ٢٠٠٦م، ص٨٥ .

٦ – مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، الناشر: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ ، ولسان العرب، ابن منظور، لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم ابن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ مادة: (فطر).

٧ – ينظر لسان العرب، (مادة: فطر). وكتاب التعريفات، المؤلف: علي بن محمد الجرجاني، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ ، باب الفاء، ص١٦٨.

٨ – معجم لغة الفقهاء، ص٣٣٠.

٩ – معجم الفروق اللغوية، العسكري، (٥١٠/١).

١٠ – صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣).

١١ – صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦).

١٢– ينظر: الشهوة طريقك إلى الجنة ، أحمد زين، https://saaid.net/rasael/١٧٠.htm .

١٣– صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: خلق الإنسان خلقا لا يتمالك، رقم (٢٦١١).

١٤ – المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ، (١٦٤/١٦).

١٥ – فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ، طبعة ابن كثير، دمشق، عام ١٤١٤هـ، (٥٢٢/١) .

١٦ – تفسير القرطبي، ، دار الكتب المصرية، ط٢، سنة١٩٦٤م، (١٤٩/٥).

١٧ – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ، الدار التونسية للنشر، سنة ١٩٨٤م، (٢٢/٥) .

١٨ – المرجع السابق، (١٢٩،١٣٠/٢٢).

١٩ –أنوار التنزيل واسرار التأويل، البضاوي، دار إحياء التراث، بيروت، ط ١، عام ١٤١٨هـ، (٤/ ٢٤٠).

٢٠ – الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، الناشر: دار الحديث، القاهرة، رقم الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩ م، (٦٤/١).

٢١ – الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، محمد بن القرطبي ، الناشر: دار الكتب المصرية ، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ، (٢٩/١٤).

٢٢ – أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، نشر: دار الفكر بيروت، عام : ١٤١٥ هـ ، (١٧١/٣).

٢٣– صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٥٨).

٢٤ – شرح صحيح البخاري، لابن بطال، (٣٧٢/٣).

٢٥ – صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، رقم (٢٨٦٥).

٢٦ – شرح النووي على صحيح مسلم، (١٩٧/١٧).

٢٧ – مجموع الفتاوى لابن تيمية تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.، (٢٦٠/٥) .

٢٨ – منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ ، ص٣٠٠.

٢٩ – التدين وحاجة الناس إليه، موقع إسلام ويب .

٣٠ – صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

٣١ – تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (٩٨/١) .

٣٢ – ينظر: تفسير ابن كثير، (٢٩٢/٨).

٣٣ – تفسير المنار، (٦٨/٢) .

٣٤ – جامع الرسائل، (٢٤٨/٢)، نشر دار العطاء، الرياض، ط١، سنة ٢٠٠١م، (٢٤٨/٢).

٣٥ – صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم (١٩٧٥).

٣٦ – صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

٣٧ – صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من نذر أن يمشي إلى الكعبة، رقم (١٨٦٥).

٣٨ – سنن أبي داوود، رقم (٣٣٠٠).